



عبدالله الشحي

# المرويات وتشكيل التصور عن الآخر

يقوم الكاتب الدكتور عبدالله إبراهيم - عن طريق اتخاذ الأدب الجغرافي نموذجاً - بمناقشة تركز الأمة؛ باعتبار أنها قمة الرقي والأخلاق، وتمثيل الآخر، ووصفه بالدونية عن طريق المرويات الثقافية. وأوضح الكاتب مفهوم المرويات على أنه «كل تعبير يقوم بوظيفة تمثيلية للمرجعيات الثقافية والعرقية والدينية، بغض النظر عن الصيغة» مثل كتابات ابن جبير. والمرويات - كما يُخبر عنها الكاتب - تستطيع أن تعطي صورة جاهزة عن الآخر بطريقة ترفع من قيمته أو تخفضها بالأخص عن طريق توجيه أفكار المؤرخين والمفكرين والفقهاء.

مما يُعرقل تواصلنا مع العالم حتى مع وجود وسائل وإمكانات التواصل الحالية.. فعموم أفراد المجتمع يحتقرون الوافدين من أصحاب المعتقدات المختلفة؛ باعتبارهم من مرتبة دونية، بل حتى المسلمين من الجنسيات الأخرى يتعرّضون للتمييز العنصري. وأتصور أن المرويات قد ساهمت بشكل فعال في بلورة هذه المشكلة كما تم توضيحه في المقال. ومن خلال المقال، قام الكاتب بمناقشة أثر المرويات من عدة جهات، من جهة دينية حيث يتم انتقاص دين الآخر ومعتقداته، ومن جهة ثقافية عبر اعتبار عادات الغير مستقبحة قياساً بعادات المجتمع المسلم، وأخيراً من ناحية سياسية؛ حيث هناك مصطلح دار الإسلام ودار الحرب التي يتم محاربتها واستباحتها.

وبعد طرح تلك المعطيات والأمثلة من المرويات، يتضح جلياً كيف هي صورة الآخر لدى المجتمع المسلم، وكيف أن التقييم للغير يجري بطريقة متحيزة وغير موضوعية البتة، إضافة للتأثيرات المختلفة لذلك التقييم. هناك أهمية واضحة لوجوب معالجة ونقد الموريات التي صاغت فكرتنا عن الآخر، ولا تزال تفعل حتى اللحظة الراهنة.

deeko123@hotmail.com

سكان المعمور خلف خط الاستواء والذين - كما يؤكد الدكتور عبدالله - يُقصد بهم الزنج، وأن بلادهم بلاد العراة المهملين كالبهاثم، وأن هذا شيء مشهور عنهم. وهنا نلاحظ كيف يطلق الحكم بحقهم مع أنه ينقل عن شخص مجهول!

وبالإضافة إلى ما سبق، فإن ابن سعيد - كما يوضح الكاتب - متأثر بالفكر البطليموسي الذي عمل على تحقير الإفريقيين السود وخفض قيمتهم؛ حيث ينقل لنا ابن سعيد أيضاً على لسان ابن فاطمة عن بعض المناطق الواقعة على مشارف خط الاستواء «ولم أر من رأى جانبها، وإنما وصفها الكانميون وجيرانهم ممن لقيناه بالجانب الشمالي. ويحدق بها من جميع جهاتها أمم طاغية من السودان الكفرة الذين يأكلون الناس...». الكاتب أكد على مطابقة الصورة السابقة لابن فاطمة لما قاله هيجل عن الأفارقة من أنهم أكلة لحوم بشر!

ويقترح الكاتب القيام بنقد وتحليل هذه المرويات والمتون كخطوة نحو الاقتراب من الآخر.

ومن وجهة نظري، تعتبر تلك القضية قضية مهمة؛ ففكرتنا عن شعوب الأرض المختلفة عنا تحمل الكثير من العنصرية؛

إلى فهم مصطلح «دار الإسلام» حسبما يقول الكاتب؛ بسبب ما له من تأثير كبير في رسم صورتنا عن الآخر؛ حيث ينتج عنه وجود «أنا» متعالية صاحبة الأخلاق الفاضلة، و«آخر» منخفض القيمة والأخلاق؛ فهناك حرب دائمة بين الحق والباطل، وأهل الحق عليهم نشر القيم وفرضها ولو بالقوة والعنف.

وينتقل الكاتب إلى الحديث بشكل أعمق عن المرويات؛ متخذاً أمثلة من كتابات ابن جبير والطروشني وابن سعيد المغربي؛ فابن جبير وصف مدينة مسينة في جزيرة صقلية بأن فيها رغد عيش وأماناً، لكنها مدينة كافرة تعج بعبدة الصليب ولا يرتاح فيها المسلم.

ويلفت الكاتب الانتباه إلى أن ابن الطروشني من جهة أخرى يركز على المكون الثقافي أكثر من الديني في وصفه للجلالقة؛ حيث يصفهم بأنهم أهل غدر ودناءة، قوم لا يغتسلون في العام سوى مرة أو مرتين، وأنهم لا يغسلون ثيابهم، لكنهم أصحاب بأس في المعارك؛ يرون الموت خيراً من الفرار من المعركة. ويُمكن ملاحظة انتقال ابن الطروشني من الوصف إلى إطلاق الأحكام. وهناك أيضاً ابن سعيد المغربي الذي يُخبرنا نقلاً عن ابن فاطمة -تجدد الإشارة إلى أن هذا الأخير شخصية مجهولة- عن

إن المجتمع يُخضع الغير للتقييم وفق الأخلاقيات والمقولات والقيم الخاصة به، دون النظر في اختلاف الآخر وخصوصيته الثقافية والدينية، ويتضح ذلك من خلال المرويات التي اتسمت في القرون الوسطى بالنظرة الأحادية وبالتفسير المطلق، والمجتمع المسلم يمارس ذلك من خلال مروياته التي تبخس الآخر.. تلك المرويات التي يلفت الكاتب الانتباه إلى أنها لم تتعرض لنقد معمق، ويُمكن توضيح آلية عمل المرويات في أنها تخلق تمايزاً بين المجتمع المسلم المتمركز على نفسه وغيره، فالمجتمع المسلم متعال ومتنور وحاصل على الفضائل، بينما الآخر ضال وفاسق ومحتاج للهداية، بهذا يحصل الأول على تخويل لمحاربة الآخر من أجل هدايته، وهذه النقطة تتكرر بشكل مستمر خلال المقال، ولكن الكاتب يعرضها في معرض مختلف في كل مرة. فيصف الكاتب تلك المرويات بالذاكرة، ويستخدم مصطلح (الذاكرة النافعة) الخاص بالفكر «إدوارد سعيد»، ويقصد به «القيام بانتقاء بعض قطع الماضي لطمسها، وإبراز بعضها الآخر من أجل الانتساب لماض يعادل الواقع الموضوعي السيئ؛ حيث يتم الابتعاد عن مشاكل الواقع إلى أمجاد الماضي. وهناك ضرورة للانتباه

